رأي وحوار

في الفقه الحضاري:

حول منهج جديد لدراسة حضارة الإسلام

عماد الدين خليل*

تمس مسائل الفقه الحاضري ومناهج دراسة الحضارة الإسلامية في مدارسنا وجامعاتنا؛ هذه المناهج التي تعاني من عيوب شتى أبرزها —ولاريب– تقطيع جسد هذه الحضارة وتقديمها للطالب مزقاً وتفاريق.

وهي بهذا ستفقد شخصيتها المتميزة وملامحها المتفردة التي تمنحها الخصوصية بين الحضارات، ولسوف تصير مجرد أنشطة ثقافية أو معرفية أو مدنية في هذا المجال أو ذاك، وقد تمتاز ببعض الخصائص، لكنها لن تعكس التصور النهائي لرؤية المنتمين إليها للحياة والعالم والوجود.

إن معاهدنا وجامعاتنا تقطع سباق هذه الحضارة ووحدتا فيما تسميه "الضرورات الزمنية حيناً"، والمنهجية حيناً آخر والتخصصية حيناً ثالثاً. فدرس النشاط الاقتصادي في سنة أو سنة أو سياق، والحياة الاجتماعية في سياق آخر، والحركة العلمية في سياق ثالث والنظم الإدارية في سياق رابع. حتى إنها وهي تدرس كل واحد من هذه السياقات تتعامل معه مقطعاً مجزؤءاً لا يكاد يملك خصوصياته وتميزه على مستوى التصورات التي تصوغه والممارسات التي تنزل به إلى واقع الحياة.

وهكذا تصير دراسة الحضارة الإسلامية —في نهاية الأمر— لهاثاً وراء أمور مثل مبررات الجزئية ودفاعاً عن موقف الإسلام من فرضها على أهل الكتاب، وركضاً وراء قوائم الضرائبي الأخرى.

ومتابعةً للمحتسب وهو يتجول في الأسواق لمعاقبة المخالفين، كما تصير استعراضاً وصفياً صرفاً لمنظمة الدوليين التي لا أول لها ولا آخر، وللصراع على منصب الوزارة، وللترتيبات الأمنية والعسكرية للشرطة والجيش. كما تغدو في السياق العلمي تصنيفاً فجاً للعلوم النقلية والعقلية، وإحصاء للمدونات التي كتبها الأجداد. وفي سياق العمران يلقن

* دكتوراه تاريخ جامعة عين شمس بالقاهرة، 1968، أستا التاريخ الإسلامي في كلية التربية بجامعة الموصل.

الطلاب وصفاً مادياً مملاً لمفردات الزيارة وقياساتها وأحجامها بعيداً عن الخلفيات الرُّؤَوِيَّه التي وضعت لمساتها، وقدمتها للعالم وهي تحمل خطاباً حضارياً عز تقديره بين الثقافات.

ويتخرج تلميذ الإعدادية والطالب الجامعي- وهو لا يكاد يمتلك معرفة معمقة بخصائص حضارته الإسلامية، وبالمكونات التي تميزها عن الحضارات الأخرى، فضلاً عن انه يتخرج وهو لا يملك الاعتزاز بحضارته والفخر بها، وان النشاط التدريسي في التاريخ والحضارة ينطوي بالضرورة على بعد تربوي، لكن هذا البعد يتفكك ويذوب من خلال المنهج الذي لا يكاد يمنح الطالب أي ملمح يجعله يتشبث بتراثه الحضاري بوصفه أقرب إلى تطلعات الإنسان وأهدافه الأساسية الكبرى في هذا العالم، بل إننا قد نصل في نهاية الأمر إلى نتائج معاكسة تتمثل في رفض حشود الخريجين لتراثهم الحضاري وإنكاره وإعلان التمرد عليه والاندفاع في المقاب، باتجاه إغراءات الحضارات الأخرى، وإغواء بريقها السطحي الخادع، ولاسيما الحضارة الغربية.وبها يصير تدريس الحضارة الإسلامية، وبقدرتها على الإسهام والفاعلية في حضارة العصر العالمية وفي أدوارها المحتملة في صياغة المصير البشري، كما يؤكد العديد من المفكرين والباحثين والمستشرقين الغربيين.

لا أكتمكم القول أيها الإخوة بان العقل الغربي تفوق علينا في منهج الدراسة الحضارية، كواحدة من حلقات تفوقه الراهن. وليست محاولة المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي في مؤلفه المعروف (دراسة في التاريخ) ببعيدة عن أذهانكم. إذ يتعامل مع الحضارات البعض والعشرين التي درسها عبر استقرائه للتاريخ البشري كما لو كانت كل واحدة منها تحمل شخصية متميزة، وملامح منفردة وخصوصيات تميزها عن سائر الحضارات، ونسقاً يجري في عروقها هو غيره في الحضارات الأخرى.

وقد تنطوي المحاولة على قدر من التنظير لمجرى التطور الحضاري في التاريخ البشري كله، يسعى لأن يخضع سائر الأنساق الحضارية،للتلمح أو الخاصية التي أشير إليها سلفاً يوصفها الوجه الأساسي للحضارة، ومفتاحها الرئيس الذي يفسر كل صغيرة وكبيرة في نبضها وصيرورتها وفاعليتها ومعطياتها.

وقد يحدث انسياق وراء إخضاع الظاهرة الإنسانية لمقولات النظم والمعادلات الرياضية الصارمة من أجل إدراكها والسيطرة عليها، ربما يذكرنا استنتاج (ألكس كارل) بصدد طريقة عمل المخ البشري، وقد يحدث أن تحال

الصيرورة الحضارية إلى أنساق الحياة في عالم النبات والحيوان والإنسان، فتكون الرحلة الحتمية بين الميلاد والنمو والإزدهار. ثم الانكماش والتيبس والذبول والزوال، فيما يذكرنا بالحاج شنكلره في تفسيره الدوري أو الإحيائي للتاريخ.

قد يحدث هذا وذاك ونحن نتذكر أن إحدى إدانات الباحث المعروف (سوروكن) لنظرية في التفسير الحضاري للتاريخ، كانت تنصب على أنه ليس بالضرورة أن تنفرد حضارة ما بخصائص معينة لا نجدها في الحضارات الأخرى.

كما أنه ليس بالضرورة أن تنسحب هذه الخاصية الأساسية على كل المفردات والمكونات في نسيج حضارة ما فتدمغها بطابعها تماماً، كما يحدث في عالم (الجينات) أو المحمولات الوراثية بين الأجيال والأجيال.

ورغم ذلك كله، فإن توينبي وغيره من مفسري التاريخ، منظريه قدموا منهجاً شاملاً للتعامل مع الحضارات فيه الكثير من الميزات التي تجعله أكثر صلاحية لدراسة حضارة ما عبر رحلة الميلاد والنمو والازدهار والذبول من أي منهج آخر.

منهج دولة بعده الأفقي الذي يتابع انتشار الخصائص المميزة في تكوين الحضارة الواحدة، وبعده العمودي الذي يتابع مسار الظاهرة الحضارية عبر مراحلها المذكورة، ويضع يده على خصائص كل مرحلة بما يجعلها أقرب إلى الفهم.

ومهما يكن من أمر فإننا اليوم، ونحن نحاول أن ندرس حضارتنا الإسلامية،في أمس الحاجة إلى منهج قريب من هذا يتعامل، مع هذه الحضارة كما ينبغي وبدء صيرورة ونمواً وانكماشاً وفناءً. فإذا تذكرنا أن حضارتنا هذه لم تتشكل من العدم، ولم تلم شتاتها بطريقة ميكانيكية من هذه الحضارة أو تلك، فتكون عالة عليها، وأنها إنما نشأت بتأثيرات إسلامية، ووفق شروط ومبادئ معددة صاغها الدين الإسلامي. تكونت في رحم إسلامي وليس في رحم آخر، وإن بصمات كتاب الله جل جلاله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم)، لمن الأمور التي لا يكاد ينكرها باحث جاد. إذا عرفنا هذا كله، أدركنا كم تكون جنايتنا على طلبتنا بتقديم هذه الحضارة إليهم مقطعة، وبنوع من فك الارتباط الساذج أو الخبيث، الذي يتعمد التعامل معها وكأنه لم يكن للتأثيرات الإسلامية في تكوينها أي حضور ملحوظ، اللهم إلا في خانة ما يسمى بالعلوم الثقافية المودعة في المصنفات العتيقة البعيدة عن تشكيل الحياة، والنزول إلى المؤسسة والشارع والمدرسة والبيت.

إننا في عصر ما يسمى بصراع الثقافات. زمن الغزو الفكري ومحاولات الاحتواء، ونحن نتذكر مقولة (توينبي) بخصوص الحضارات الست المتبقية في العصر الراهن، بعد مغيب ما يزيد عن العشرين حضارة، وإن هذه الحضارات المتبقية، بما فيها الحضارة الإسلامية، تلفظ أنفاسها وتدور في فلك الحضارة الغربية الغالبة، وهي معرضة في أي لحظة للتفكك والتلاشي في مدارات هذه الحضارة.

فمن أجل مجابهة هذا المصير المحزن، والتأبي على إغوائه، علينا أن نتحصن في خصوصياتنا الحضارية، وأن نتشبث بعناصرها الفاعلة ومكوناتها القديرة على الديمومة، وإرهاصاتها الواعدة بالمشاركة في المصير. ولن يتم هذا كله إذا لم نملك منهجاً متكاملاً، وليس تفكيكاً لدراسة هذه الحضارة وإذا لن نغرس في نفوس الطلبة وعقولهم خصيصة الاعتزاز بحضارتهم والثقة، ليس فقط

بقدرتها على الانبعاث، وإنما بمواصلتها النمو كرة أخرى، وتقديمها الوعد بالخلاص للبشرية المعاصرة التي أوصلتها الحضارة الغربية المادية والأديان المحرفة، والمحاولات التلفيقية إلى طريق مسدود.

ولحسن الحظ فإن الحضارة الوحيدة من بين سائر الحضارات التي شهدها التاريخ البشري. الحضارة الوحيدة القادرة على الانبعاث والنهوض مرة ثانية وثالثة ورابعة في القرن العشرين أو الواحد والعشرين، هي الحضارة الإسلامية لأنها تستمد أسسها من كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم).

وتجد في الوقت الملائم –دائماً– رحمها الذي يمكن أن تتخلق فيه كل مرة لكي تخرج إلى الحياة تارةً أخرى، وهي تحمل قدرتها على التنامي والصيرورة والمضي لكي تستوي على سوقها.

إن الحضارة المصرية أو السومرية أو البابلية أو اليونانية أو اليرليفيزية أو غيرها من الحضارات المندثرة لا يمكن أن تستعيد قدرتها على النهوض كرة أخرى، لأن ظروف قيامها كانت تاريخية مرهونة بالزمان وبالمكان، ولأن خلفياتها التصويرية أو الدينية أضحت في ذمة التاريخ، ولن يكون بمقدورها أن تحقق حضوراً في القرن العشرين، أو القرون التالية، لأنها لا تملك —ابتداءً–مقومات الديمومة والاستجابة لتحديات العصور.

أما حضارتنا الإسلامية فسوف تظل الوحيدة من بين سائر الحضارات الأخرى القادرة على الانبعاث ولاسيما إذا تذكرنا قدرة النص القرآني والمعطى النبوي على الاستمرارية بإذن من الله عز وجل، وشهادة من التاريخ والظروف

على أنه ما من نص ذي أصل ديني قدر على مجابهة التحريف والتزييف كالنص القرآني والسنة النبوية الشريفة التي تنبع من عطائه.

ليس هذا فحسب، بل إن التشبث بمنهج أكثر سلامة لدراسة وتدريس الحضارة الإسلامية يغدو ضرورة من الضرورات إذا ما تذكرنا أننا اليوم مدعوون لتقديم البديل أو المشروع الحضاري قبالة الفراغ الذي أحدثه سقوط جل النظم والأفكار والتجارب الوضعية، الشمولية والمحدودة على السواء. فلقد سقطت الوجودية وأعقبتها الشيوعية، ومن قبلهما تفتت دعاوى العرقية المتفوقة بانهيار ألمانيا النازية، وإيطاليا الفاشية وسقطت بين هذا وذاك نظريات التفوق الغربي المبنية على سيادة الرجل الأبيض بانهيار الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى: البريطانية والفرنسية والروسية، ومن قبلها الإسبانية والبرتغالية.

أما الأديان المحرفة فقد وصلت إلى طريق مسدود، وراحت تبحث عن منافذ للخروج حتى ولو جاء ذلك على حساب ثوابتها الدينية والأخلاقية، من مثل ما تفعله بعض الكنائس لكسب الأنصار فيما بعد في أساسه عملاً أخلاقياً —ابتداءً– مع أطروحات المسيحية وثوابتها.

ليس ثمة غير الإسلام —أيها الأخوة–دين يقدر على ملء الفراغ على تقديم المشروع البديل الذي يكتسح هذا الغثاء، ويتموضع في قلب العصر مشاركاً في صياغة الحاضر، واعداً بمستقبل أكثر إنسانية. بعالم أشد مقاربة للوضع البشري المتأزم التعيس.

ويكفي أن نتذكر هنا جانباً من أقوال واستنتاجات مفكري الغرب المعاصرين لكي يتأكد لنا أن تأصيل وحماية هويتنا الثقافية يعدان ضرورة ليس في إطار العالم الإسلامي وحده ولكن على البشرية كلها. إن هذا الدين سيعود، كما يقول المفكر القانوني الفرنسي مارسيل بوازار إلى الظهور في العالم المعاصر بوصفه أحد الحلول للمشكلات التي يطرحها مصير الإنسان والمجتمع، ولسوف يكون في وسع العالم الإسلامي، من بين عوالم أخرى، أن يقدم مشاركة أساسية في تكوين المجتمع الدولي المرتقب. إن التقدم العلمي المادي —كما يلحظ الرجل — لا يكفي وحده ما لم يضبطه القيم الخلقية فتوجهه لصالح الإنسان، ومن خلال هذه الرؤية الأخلاقية للنشاط المادي يمكن للإسلام أن يمارس دوراً حقيقياً في تنظيم العالم المعاصر. وتبدو أهمية المشاركة الإسلامية —أيضاً–في نظر بوازار، في التوازن الذي يمنحه الإسلام، كدين ودستور لمسيرة المجتمع البشري بين التقدم المادي (التقني) وبين المطامح الروحية والإنسانية عامة، أضف إلى هذا أن

الانخراط في المجتمع التكنولوجي، والمواجهة بين الإسلام والثورة التقنية لا تدفع المسلم إلى إنكار موقفه الديني، بل إلى تعميقه أمام الله (جل جلاله) وأمام الناس متوجباً عليه محاولة إدراك الإمكانات بشكل أفضل في إطار شامل. ويحذر الباحث الأمريكي المعاصر كوكورهينج من أن عالمنا هذا الذي مزقته الصراعات، والذي لا يعرف حاكماً أعلى، بيده مصير الإنسانية؛ ليحد ربه تصور الوحدة الجوهرية للحياة كما أسسها الروحية للناس في أيامنا الحاضرة. وثمة نصيب آخر من الفضل للإسلام،قد يكون متفرعاً عن سابقه، ذلك هو ما حققه من التسامح بين أجناس البشر فإن الإسلام –في إطار الأخوة الإسلامية– يستطيع أن يرى المسيحية نجاحاً حقيقياً فعلياً في ميادين التسامح البشري.

ويقدم المفكر الفرنسي (المسلم) روجيه جارودي في كتابه (وعود الإسلام) ملاحظات خصبة عن احتمالات المشاركة العالمية لهذا الدين إن عنوان الكتاب في حد ذاته يحمل بعداً مستقبلياً، وإن ملاحظات صاحبه حول مشاركة الإسلام العالمية لتتحرك على عدد من المحاور ولا ريب: توازن الإسلام ووسطيته، وقيمه الأخلاقية، ثم رؤيته الشمولية، وقدرته المتميزة على منح المغزى لمسيرة الحياة البشرية في هذا العالم.

وليس يتسع الوقت لتقديم أدلة على هذه المحاور، ولكننا نجد من الضروري تذكر السؤال الذي طرحه جارودي في كتابه هذا: ماذا يستطيع الإسلام أن يقدم لنا لعدنا لحل المسؤوليات التي تفرضها قدرة العلم والتقنية على جميع البشر اليوم؟ وأن نتذكر –جوابه: إن المشكلة كونية ولا يمكن للجواب إلا أن يكون على المستوى الكوني.

وهكذا تصير مشاركة الإسلام أكثر من ضرورية لأنها لن تدخل الساحة لكي تعالج هذه الجزئية أو تلك، أو تقدم العلاج لهذه المشكلة المحددة أو تلك، وإنما لكي تعيد بناء الحياة البشرية بما يرد إليها قيمتها الحقة، ويمنحها هدفاً ومغزى، ويربطها بالإنسان نفسه محققاً التناغم والانسجام المكون بعد إذ أقام الفكر الوضعي بين شعوبه الأسلاك الشائكة المكهربة بالكراهية والبغضاء.

وهكذا يغدو بعث الإسلام كبعث الإنسانية بأكملها وأنها –حقاً–قضية مستقبلنا؛ قضية مستقبل جميع البشر.

وثمة ما يتوقفنا في كتاب **وعود الإسلام**: شهادة على غاية من الأهمية؛ لأنها تتضمن روح الدور الإسلامي المنتظر ومنطلقه. ورؤيته للعالم هي شهادة أن لا إله إلا الله وحده فهي الإثبات الأساس للإيمان الإسلامي، وهو يعني أول ما يعني إعلان الحرب على الوثنية وإقصائها، تلك الوثنية التي تفرخ –كما يقول جاوردي– وتتكاثر في مجتمعنا.

وإننا لنعرف بالتأكيد ما لشعر لا إله إلا الله وحده من قوة بناء وتحرير. فالحوار مع الإسلام يمكنه أن يساعدنا على ابتعاث روح عقيدتنا الحية فينا من تلك التي تستطيع نقل الجبال من مواضعها.

حقاً: إن الإسلام يحمل بذور تغيير جدوى على مستوى الإنسانية.

عندما جاء الإسلام —لم يكن للعرب حضارة متميزة بناؤها كله مفردات من هنا وهناك. فيما يشبه وضعنا زمن الصدمة الحضارية الغربية الحديثة. ففي العراق مثلاً-استعاروا الكثير من المفردات فلم الفارسية، وفي الشام من البيزنطيين وهناك التأثيرات الهيلينية. أما في شمالي الجزيرة العربية فلم يكن لهم-فيما عدا الشعر —معطيات حضارية أصلية. وتبقى اليمن التي ورثت عن المعينيين والسبئيين والحميريين بعض التقاليد الحضارية، لكنها لم تكن على أية حال بالحجم الذي يمكنها من الديمومة والتأثير في مجرى الصراع الحضاري بسبب عزلتها وتضحلها الفكري. وكان التصور العقدي الذي يسود هذه البيئات جميعاً -فيما عدا استثناءات الحنفية والأديان السماوية المحرفة- تصوراً وثنياً جاهلياً لا وزن له ولو يسير، فهذه هي الجاهلية التي تحدث عنها القرآن الكريم، والتي جعلت العرب، على تحضر بعض بيئاتهم، يعايشون واحداً من أشد عصور التخلف الفكري في التاريخ، شأنهم في ذلك شأن مساحات واسعة من العالم في تلك العصور، فيما تحدث عنه مؤرخو الحضارات فأطالوا الحديث وفيما يمكن أن نتابع تفاصيله في الفصول الأولى من كتاب (الندوي): "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين".

وعندما جاء الإسلام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم استطاع مجابهة الجاهلية، ونقل العرب، وضعهم على بداية طريق التطور الحضاري حتى تمكنوا من تجاوز حالة التخلف الفكري الذي هو أساس كل تخلف والانطلاق لبناء حضارة متميزة، قدر لها على مدى قرون متعددة أن تكون الحضارة الأكثر فاعلية وتأثيراً في مجرى التاريخ البشري.

ولقد سبق أن تحدثنا في غير هذا المكان عن حلقات هذه الشبكة أو المنظومة التأسيسية للفعل الحضاري: في كتاب حول إعادة تشكيل العقل المسلم، وفي عدد من المحاضرات التي هي في الموضوع نفسه ولا نرى ضرورة للتكرار.

ولعل بعضكم يتساءل عن الأسباب التي جعلت بدايات الفعل الحضاري الإسلامي تتأخر لعدة عقود، تلك التي دفعت بالمسلمين إلى استعارة بعض المفردات الإدارية والفنية من الفرس والروم. بل حتى الكتابة والقراءة ببعض

اللغات غير العربية في العديد من تلك الأنشطة، إذ لم يتم الانتقال إلى مرحلة تجاوز النقل المباشر والاعتقاد على الآخر، ولم يتم تشكيل الخصوصيات الحضارية إلا في منتصف العصر الأموي، حيث تمت عملية التعريب المعروفة في سياق الإدارة والمالية، وبدأت الأنشطة المعرفية في مجال اللغة والتاريخ والجغرافيا والآداب والفنون وبعض مجالات العلوم البحتية وعلوم القرآن والحديث.

ولكن ليس من السهولة بمكان التسليم بمقولة كهذه. صحيح أن بدايات الفعل الحضاري تأخرت بعض الوقت، ربما بسبب وجود أوليات جعلت اهتمام أجيال المسلمين الأولى تتمركز حول قضايا مثل ضرورات الدعوة في العصر المكي، وبناء الدولة في بدايات العصر المدني، وإقامة الوحدة في أخريات هذا العصر، والدفاع عنها ضد تيارات الردة في بدايات العصر الراشدي. ثم الفتوحات الإسلامية عبر هذا العصر المدني، حتى بالفتنة والحرب الأهلية لمدة سنوات، ثم ما لبثت أن استؤنفت أعقاب عام المجاعة (41هـ) وقيام الدولة الأموية.

لكن هذه الممارسات، إذا أردنا أن نوسع المنظور، هي في النهاية ممارسات حضارية تهيئ امتداداً طبيعياً للأسس التي نزل بها كتاب الله جل وعلا، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فمن هذا الذي يستطيع القول إن ممارسة الدعوة إلى الإسلام في مواجهة الجاهلية، وإقامة دولة الإسلام في مواجهة القبلية وتوجد جزيرة العرب، وبدء حركة الفتح الإسلامي في مواجهة عقبات عاتية. لم تكن –في أساسها–عملاً حضارياً؟

إن الحضارة كل لا يتجزأ فإذا حدث أو تأخرت بعض حلقاتها عن الفعل أو التنفيذ، فمعنى هذا أن هناك أولويات وضرورات، اقتضت تقديم مطالب أخرى عليها، في انتظار اليوم الذي يتيح لها فرصة تحقيقها، وهذا هو الذي حدث فعلاً منذ أواسط العصر الأموي وطيلة العصور التالية فإنه ما لبثت حضارة الإسلام أن استكملت مقوماتها في القرنين الثالث والرابع الهجريين، بعد أن كانت في الفترات السابقة تبذل جهوداً خارقة لاستكمال أسباب النمو والانطلاق.

إن الضرورات آنفة الذكر، وإن كانت تبدو في ظاهرها عقدية أو سياسية، أو حتى عسكرية صرفه، غير أنها في بعدها الحقيقي ضرورات حضارية، لأنها تعبير عن حالة فكرية تصورية، استهدفت تغيير الموقف البشري من العالم والكون والحياة والأشياء. أي تشكيل نسق فكري يكتسب خصوصياته من العقيدة التي قام عليها، وهو في صميمه –

إذا أردنا الحق- فحل حضاري يأتي أكثر أهمية قبل الحلقات التنفيذية التالية في مجالات الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتهادية والمعرفية.

لقد حدث –إذن- نوع من التعليق الزمني لهذه المفردات، من أجل تحقيق هدف أعظم أهمية، وهو تعميق وحماية شبكة الأسس الحضارية التي وضعها الإسلام، والتي قدر لها أن تنشئ في وقت لم يطل حضارة متميزة تملك ملامحها المستقلة وخصوصياتها الفكرية، وتعاملها المتفرد مع الوجود والمصير.

وهو تعليق لم ينصب على الفعل الحضاري ذاته، وإنما على حلقات محددة منه. في حين في ظواهر مهمة من الحياة مضت عملية التأسيس والتعميق والتغيير تعمل عملها من خلال الممارسات الكبرى نفسها: دعوةً واحدةً وفتحاً.

ويستطيع المرء أن يلحظ كيف أن تحولات أساسية لها أبعادها الحضارية ثم التأكيد عليها في عصر الرسالة، وتغذيتها على مستوى القرآن والسنة والممارسة التاريخية، ويمكن أن نوجزها في المحاور التالية: أولاً: التوحيد في مواجهة الشرك والتعدد. ثانياً: الوحدة في مواجهة التجزؤ. ثالثاً: الدولة في مواجهة القبلية. رابعاً: التشريع في مواجهة العرف. خامساً: المؤسسة في مواجهة التقاليد. سادساً: الأمة في مواجهة العشيرة. سابعاً: الإصلاح والإعمار في مواجهة التخريب والإفساد. ثامناً: المنهج في مواجهة الفوضى والخرافة والظنون والأهواء. تاسعاً: المعرفة في مواجهة الجهل والأمية. عاشراً: التوازن والتناغم بين الثنائيات في مواجهة التناقض والنفي والاصطراع.

يمكن أن نضيف إلى هذا –جملة من العوامل والمبادئ والمتغيرات التي تم التأكيد عليها في عصر الرسالة وأعانت على إيجاد بيئة ملائمة للفعل الحضاري.

إن الكلمة الأولى التي تنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم في غار حراء لحظة اللقاء الأول بين الرسول الأمي صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام لم تكن نفياً أو سلباً. لم تقل: لا تقتل، لا تكذب، لا تزن، وإنما كانت تأكيداً وإيجاباً وأمراً بفعل حضارة هو القراءة:

﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (العلق :1-5). القراءة والعلم والقلم. تلك هي الآيات الأولى في السورة الأولى من التنزيل والتي وضعت المسلم في قلب العالم

وليس بعيداً عنه أو غريباً فيه، بل إن الآيات الكريمة تتضمن كذلك الأمر القاطع بالكتابة لأنه لا تتأتى قراءة بلا كتابة.

ففي القرآن الكريم تحرير لإرادة الإنسان، وليس كتباً لها، ودعوة للإنسان لإعمال العقل في حياته الدنيا، وتحرير للإرادة البشرية بحل الطيبات وتحريم الخبائث وإزاحة الأغلال عن الناس التي كانت تكبلهم.

وفي القرآن كذلك دعوة مؤكدة واضحة إلى أن ننظر دائماً إلى الأمام وألا نلتفت إلى الوراء. فقد تهتدي به الأمم إلى مواقع الخطأ والصواب. أما أن يكون عملاً لا وعياً يقوم على التقليد الأعمى، فقد يؤدي إلى حالة تعارض مع ما نزل به القرآن الكريم، الذي نعى على المشركين والمتخلفين أنهم كانوا يتشبثون بما فعله الآباء والأجداد قال تعالى: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارهم مقتدون﴾ (الزخرف :23). وهي هداية مشوبة يرفضها الإسلام أشد الرفض.

إن تونيبي المؤمن البريطاني المعروف يشير إلى نمطين من التعامل مع معطيات الآباء: نمط التقليد الأعمى في مرحلة السقوط الحضاري، ونمط الاقتداء بالنخبة المبدعة وخبراتها الخصبة في مرحلة النهوض الحضاري. والقرآن الكريم يرفض الأولى؛ لأنها تقود إلى التخلف والركود ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ماكسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ (البقرة :134).

وهناك رفض لهدر الطاقات التي تعمل –أحياناً– في غير مجالاتها المرسومة. إن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيما رواه الطبراني والبيهقي وغيرهما: تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله. إنه يدعونا إلى التفكير في الخلق بما يقودنا إلى العلم والتكنولوجيا بما فيه من تأكيد قدرة الله جل جلاله في العالم والإيمان بوحدانيته، ويحذرنا من التفكير في الذات الإلهية التي تحل عن الأفهام، وتستعصي على القدرات العقلية، والذي يقودنا إلى الماورائيات وإلى الفكر التجريدي في واجب الوجود، وإلى متاهات والميتافيزيقيا وما يتمخض عن هذا كله من إهدار للطاقة العقلية. إنه يريدنا أن نتعامل مع الحقائق الكونية وفهم قوانينها؛ لتنمية الحياة التي سخرت إمكاناتها للإنسان من أجل تحقيق استخلافه العمراني في الأرض بدلاً من إهدار الطاقة فيما هو وراء طاقاتها وإمكاناتها وضرورات صيرورتها الحضارية في الأرض.

وثمة دعوة واضحة مؤكدة لامتلاك ناحية المسار. إن القرآن ينطوي على مئات من النداءات للإنسان؛ للتأمل في العلم ودراسة سننه وقوانينه والإفادة من طاقاته. تدبروا، تفكروا، تنبهوا، اسمعوا، انظروا، اعلموا، سيروا، إنه ليس ثمة

مكان في العالم لمن لا يعمل عقله وحواسه نظراً وتأملاً ودراسة وسمعاً وتنقيباً وتصميماً وسيراً في مشارق الأرض ومغاربها. إنه فعل دينمي مستمر يجعل المسلم –لو أحسن الإصغاء إليه– في مركز الفاعلية وفي أقصى درجاتها قدرة على العطاء.

هذه الدعوة ليست عملاً في الفراغ، ولم يرد منها أن تقدم أماني وأحلاماً، وإنما هي دعوة لإمتلاك ناصية المكان وتوظيفه لعالم مؤمن سعيد، يخدم الإنسان ويحرره من الحاجة إلى الضرورات، ومن ثم يمكنه –من تنفيذ مطالب الإيمان العليا. وتلك هي مهمة الاستخلاف العمراني في العالم ومنهجه.

إن التحرر من الحاجة إلى الضرورات لا يتحقق بالتعبد المجرد عن الفاعلية، وإنما بالتعبد المشروط بالفاعلية التي نجعل كنوز الأرض أداة بيد الإنسان، فتحرره من الضرورات.

يقابل هذا كله دعوة لامتلاك ناصية الزمان. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما ذكره علي بن العزيز في المنتخب بإسناد حسن عن أنس رضي الله عنه: إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها فله بذلك أجراً.

فحتى اللحظة الأخيرة، حتى يوم النفخ في الصور، يتحتم على المؤمن أن يزرع الأرض، وأن يبني ويطور ويواصل العمران. إن القرآن الكريم يوصي المؤمنين الجادين بأنهم يسارعون في الخيرات ويتسابقون إليها.والسبق والمسارعة مفردتان تصوران المسلم في حالة سباق متواصل. واجتياز للمصاعب والعقبات وتعامل مع الزمن في أقصى حالات الشد والتوتر والفاعلية، وذلك هو شرط حضاري آخر لا يقل أهمية عن الشروط الأخرى.

ثم ما لبثت مرحلة النمو الحضاري أن بدأت بعد استكمال مقومات النشوء وتوفير مطالبه، وراحت تنفذ معطياتها في جل الميادين الحضارية المادية والروحية والفكرية والسلوكية والمعرفية، مستعيرة العديد من الاتجاهات والخبرات من هنا وهناك.من حضارات يونانية وفارسية وبيزنطية وهندية وهيلينية، ومن ثقافات محلية نبطية وسريانية وقبطية وغيرها. ولكنها ما كانت لتكتفي بالاستعارة أو تقف عند حدود النقل الذي يكدس ولا يبني، وإنما بذلت جهداً تركيبياً مبدعاً لإعادة صياغة التراث المنقول بما ينسجم والثوابت والمعطيات التي رسمها وأكدها الدين الجديد.

لقد دفعت ظاهرة الاقتباس هذه بعض المؤرخين ودارسي الحضارة إلى القول بالتفسير الميكانيكي لنمو الحضارة الإسلامية، كما فعل فيليب حتي، على سبيل المثال، في كتابه **تاريخ العرب** المطول وبغض النظر عن دوافع تفسير متعجل كهذا، وبغض النظر عن أن مسوغات هذا المنهج الخاطئ تفتيت الظاهرة الحضارية والتعامل معها كما لو كانت أجزاء تقود الدارس للوصول إلى استنتاج خاطئ كهذا، فإن الذي حدث بالفعل لم يكن –بأية صيغة من صيغه –مجرد محاولة ميكانيكية، وإنما كان الأمر أبعد من ذلك بكثير، إنه إعادة تركيب الجزئيات المقتبسة في كل حضاري يملك ملامحه المتميزة ورؤيته المستقلة للكون والعالم والظواهر والأشياء.

والباحثون الأكثر علماً وجدية وموضوعية من الغربيين يقفون طويلاً عند هذه المسألة، ويقدمون استنتاجاتهم الواضحة تماماً بصدد بنية الحضارة الإسلامية وطبيعة تعاملها الاستيعابي التركيبي مع معطيات الآخر.

والوقت لا يتسع لاستعراض هذه الاستنتاجات أو حتى بعضها، ولذا سأكتفي بالوقوف لحظات عند نماذج منها فحسب، من مثل قول روبرت بولنشفيك أستاذ اللغة والحضارة العربيتين في جامعتي بورد وباريس. إن تأثير الدين الإسلامي تتجلى قوته في عدد كبير من عناصر الثقافة الإنسانية: في اللغة والفنون والأدب والأخلاق والسياسة والتركيب الاجتماعي ونشاطه والقانون، بحيث لا نستطيع إذا أخذنا الصورة ككل أن نلاحظ أية عناصر غريبة فيها لا تتميز بالعنصر الإسلامي أو بالعامل الإسلامي أيضاً. لقد أصبحت العقيدة الإسلامية خلال القرن الثاني والثالث (الهجريين) نظاماً نما بصورة واسعة في نواح مختلفة، وكان قادراً على إظهار تماسكه إزاء كل مدرسة أو نزعة تدخل في نطاقه.

وهكذا أخذ الإسلام كأنه علمية وقدرت له في عدة ميادين ثقافية، وهو دور المؤثر والمتأثر، وهو مظهر مزدوج لا يمكن الفصل بين جزئيه إلا بطريقة مصطنعة. ويشير رجل القانون الفرنسي المعاصر مارسيل بوازار في كتابه القيم (إنسانية الإسلام) إلى أن الإسلام اقترض ولا ريب لكنه عرف كيف يحقق، بفضل روحه التوفيقي بشكل أساسي، بناءً يحمل طابعه. فجميع بنائه الثقافي قائم على التكافل والتوفيق: اكتشاف وتقبل وتمثل وتنمية وتطوير. وقد أضاف

إليه الدين صيغة خاصة به صادرة عن شعور بالسمو والانسجام، كما أنها صادرة عن نوع من الوحدة في الاستلهام. فكانت مساهمة العالم الإسلامي الثقافية ضخمة. ويقول موريس بوكاي المفكر الفرنسي المعروف: إن الإسلام قد اعتبر دائماً أن الدين والعلم توأمان متلازمان. فهذا البدء كانت العناية بالعلم جزءاً لا يتجزأ من الواجبات

التي أمر بها الإسلام، وإن تطبيق هذا الأمر هو الذي أدى إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم في عصر الحضارة الإسلامية، تلك التي اقتات منها الغرب نفسه في عصر النهضة في أوربا، ويتأمل المستشرق الفرنسي دومينيك سورديل الفن الإسلامي من الوجهتين التاريخية والجغرافية، فرأى أنه يستحق على الرغم من نزعته التجريدية التي تدين للإسلام،وللإسلام وحده أن يتوج الثقافة الإسلامية الضخمة التي تتصف بدورها بالوحدة على الرغم من نزعاتها المتباينة ومن ثم فلا بد ولنا الإسلام ديناً (فحسب) ولا أمة (فحسب) بل ركناً لحضارة ثمينة بمظاهرها الدينية والفكرية والفنية، ومضى يقول :إنها القوة العجيبة التي تشع من العقيدة الجديدة، كما يقول فرانشيسكو كابرييلي، كبير أساتذة اللغة العربية وآدابها في جامعة روما: ومن الدولة التي أقامتها هذه العقيدة، والتي تفرعت في كل اتجاه،وأنتجت حضارة موحدة إلى حد يدعو إلى الدهشة، رغم الاختلاف الشديد بين البيئات والمستويات الثقافية التي ازدهرت فيها. ويواصل كابرييلي تحليله قائلاً: من الواضح أننا نعني بالإسلام هنا كل الحضارة الإسلامية التي تطورت بما لها من مظهر خاص من آسيا الوسطى إلى المحيط الأطلسي والتي قامت على الإيمان برسالة الرسول محمدصلى الله عليه وسلم.

ولا ريب أن العقيدة الدينية قد زودت هذه الحضارة ليس بعاملها المشترك فحسب، بل بمحورها ومظهرها الأساسي أيضاً، وإن كل مظاهر الحياة الأخرى من مادية وروحية ومن سياسية وأدبية واقتصادية واجتماعية، تحمل طابع هذا العنصر الديني وتنعكس عليها ألوانه، وتنمو تحت تأثيره ثم يخلص كابرييلي إلى القول إن الطابع الإسلامي إذا غلب على أمة من الأمم لا يمكن محوه البتة. ويذكر المستشرق الأمريكي إدرين كالفرلي بأن المسلمين قد هضموا العلم والفلسفة الهلينية ثم حوروا فيهما ليلائموا بين معرفتهم الجديدة وبين روح العقيدة القرآنية في عالم الإسلام من تخوم الصين وسهول جنوب روسيا وإندونيسيا وشبه القارة الهندية إلى غربي آسيا وشمالي إفريقية واسبانيا ظلت تحتفظ مجتمعة ومنفردة بطابع إسلامي معين مشترك يمكن تبينه بسهولة.

وترى الباحثة الألمانية سيكريد هونكة كيف كان أثر الإسلام على كل ناحية فكرية أو مادية هو الأساس الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية في اسبانيا. ويعرف كويلر يونج رئيس قسم اللغات والآداب الشرقية في جامعة برنستون، المدلول الثقافي للإسلام بأنه بالمعنى الواسع يدل على تلك المدنية المتجانسة –رغم تنوعها– والتي وجهها وسيطر عليها الدين الإسلامي منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً.

وثمة –أخيراً– تلك الملاحظات القيمة التي قدمها المفكر البريطاني روم لاوند في العرب والإسلام والتي يؤكد فيها على أن العلم الإسلامي –على خلاف الحال في أوربا المسيحية– لم ينفصل عن الدين قط والواقع أن الدين كان هو ملهمه وقوته الحافظة الرئيسية. ففي الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معاً إلى الوجود لإقامة الدليل على الألوهية وتمجيدها. ومن هنا فليس عجيباً أن لا يكون العلم الإسلامي في يوم من الأيام مجرداً من الصيغة الإنسانية –كما حدث في الغرب– ولكنه كان دائماً في خدمة الأديان، ثم يخلص إلى القول إن الحقيقة التاريخية التي لا ريب فيها هي أن المسلمين وفقوا طوال خمسة قرون كاملة، إلى القيانم بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير أن يديروا ظهورهم للدين وحقائقه. وأنهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل إلهام وإنجاح لا عامل تعويق وإحباط.

والآن إن حلقة أخرى من حلقات الحضارة الإسلامية لم تعط الاهتمام الكافي في دراستنا وتدريبنا لهذه الحضارة، رغم أهمية هذه الحلقة. تلك هي ظاهرة التخلف والتدهور والسقوط.

ولطالما درسنا طلبتنا بإسهاب حيناً آخر، عوامل سقوط هذه الدولة أو تلك من دول الإسلام كالأمويين والعباسيين والفاطميين والعثمانيين. إلى آخره.

لكننا لم نحاول –إلا نادراً– أن نقف طويلاً عند ظاهرة سقوط الحضارة الإسلامية نفسها –في سياقها التاريخي– بعيداً عن الأطر السياسية المحددة؛ لمتابعة عوامل الشلل المتشعبة والإشادة إليها بقدر من العمق والوضوح فيما يمكن أن يقدم لنا خبرة بالغة الأهمية تتمثل في إمكان النهوض من جديد على ضوء فهم وإدراك العوامل التي قادتنا، عبر قرون طويلة، إلى التدهور والسقوط.

إننا إذا استطعنا أن نحدد الأسباب، وتمكنا بعدها من استعادة قدراتنا الإيمانية وتحفيز نقاط الارتكاز في تصورنا؛ من أجل تجاوز هذه الأسباب، نكون قد وضعنا خطواتنا في الطريق الصحيح. وبدون ذلك فإن ألف دعوة أو محاولة للنهوض لن تجيء بطائل ما لم نعرف الأسباب.

ومرة أخرى، فإن المشروع الحضاري البديل المنوط بأمتنا الإسلامية اليوم لن يستهل أسبابه، وينطلق من البداية الصحيحة ما لم يطمع في الحسبان كل العوامل التي أدت بتجربتنا الحضارية السابقة إلى الانكماش والضمور وحينذاك،

وعلى وعي حضاري كهذا، يمكن أن يتحقق المضي إلى الهدف بأكبر قدر من التحرر من عوامل الهدم والإعاقة والتعطيل.

وإن هذه الحلقة أهميتها الأكاديمية في سياق دراسة الحضارات، ولكنها –في تجربتنا المعاصرة– تحمل فوق هذا قيمة مضافة لأنها ستعيننا على بناء مشروعنا الحضاري بأكبر قدر من الوعي والبصيرة.

وقد تكون هذه الحلقة فرصة لمحاضرة مستقلة؛ لكونها حافلة بالتفاصيل والجزئيات والشواهد التاريخية، لذا سنكتفي في ختام لقائنا هذا بالإشارة الموجزة.

فمنذ زمن بعيد قد يمتد إلى تسعة قرون أو عشرة فك المسلمون الارتباط بين الإنسان ومقتضياته العملية وراحوا يتعاملون معه برؤية إرجائية تكتفي بالحد الأدنى وتعزل العبادة عن فاعليتها في الأرض، أي أنهم مارسوا عملية معكوسة فبينما أراد الإيمان (الإسلامي) أن يضعهم بأن يكونوا في بؤرة الفاعلية، وأن يجعلهم فاعلين في دائرة الفعل والإبداع. أي متحضرين اختاروا أن ينسحبوا شيئاً فشيئاً. وأن يتركوا الفاعلية لخصمهم في الداخل والخارج ومن ثم أن يتحولوا إلى كم لا يملك القدرة على التنامي ومن ثم فليس له في مجابهة التحديات التي راحت تتداعى عليه في كل مكان حتى وصلت بالأمة إلى شفا الهزيمة المؤكدة على أكثر من مستوى، فيما سبق أن حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف: "يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها"، فلما سأله الصحابة رضوان الله عليهم: "أمن قلةً نحن يومئذ يارسول الله؟ كان جوابه بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل". ومع الموقف الإرجائي سادت روح التقليد والاتباع بدلاً من روح التجديد والإبداع التي وضعت الأمة المسلمة في الصدراة بين الأمم؛ بسبب قدرتها عبر القرون الإسلامية الأولى على الكشف والابتكار والإضافة النوعية والبحث عن الجديد في السياقات الحيايتة والمعرفية كافة.

ها نحن أُولاء الآن في القرون التالية قبالة سيل من الحواشي والذيول والتهميشات التي لا يجد أصحابها في أنفسهم القدرة أو الثقة لتجاوز التعلق بمعطيات دخيلة، وإن يقولوا ما عندهم، ابتداء كما فعل الآباء والأجداد زمن تألقهم الحضاري. ولطالما دعا القرآن الكريم ورسول الله صلى الله عليه وسلم في حشود لا تكاد تحصى من الآيات والأحاديث إلى ضرورة العمل والإضافة والإبداع وإلى عدم الالتفات إلى الوراء، إذا اقتضى الأمر، من أجل الاستجابة

للتاريخ والإصغاء لنداءات المستقبل: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ (البقرة :141)، ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارهم مقتدون﴾ (الزخرف :23).

وبموازاة السلبية والتقليد كانت خيوط الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي يتكاثف نسيجها يوماً بعد يوم، الأمر الذي يشل قدرات الأمة ويوهن قواها المتبقية ويؤدي بها إلى الإنعزال والاتكالية والغفلة.

ولقد تركت هذه العوامل الثلاثة فراغاً كبيراً في عقل الأمة وروحها وجعلتها تعاني ما يمكن تسميته بانخفاض الضغط وذلك بحكم قوانين الحركة التاريخية، وهناك العواصف المدمرة التي تهب على الأمة من الداخل والخارج، حتى لقد طغت على الساحة حالات من التوجه الرهباني والصوفي المنحرف، والمنسحب أكثر فأكثر من مواقع الفاعلية والحياة. وهبت على العقول عواصف الخرافات والسحر والدجل والأوهام فيما سبق أن حذر منه كتاب الله جل ثناؤه ورسوله صلى الله عليه وسلم حتى الا يستأثر بالحياة الإسلامية الشذوذ والانحراف.

وهناك الخطأ الذي لا يقل أهمية. والخطأ كما يقول السياسي الفرنسي تاليران أكبر من الجريمة والذي مارسته القيادتان المتأخرتان في تاريخنا: المماليك والعثمانيون، فهما على دورهما المؤكد في مجابهة الخصم وملاحقته أعملتا التضييع بشكل ملحوظ، ولم نستي بالقدر المطلوب لتحديات التكنولوجيا الغربية ولاسيما تكنولوجيا التسليح. وراح الفارق يتزايد بمرور الوقت بين عالم الإسلام المتخلف والغرب المتفوق بحيث أصبح تخطيه أو عبوره في القرن الحادي والعشرون بحاجة إلى معجزة تصنع المستحيل.

هذا –بإيجاز شديد– ما كان يحدث في نسيج الحياة الإسلامية فيدمر العقول والنفوس والأرواح، ويعطل الأمة عن القيام بمطالب المجابهة والقوة وحماية الذات.

ومن الخارج هبت أعاصير أخرى لا تقل ضراوة وعنفاً لكنها ما كانت لتؤدي مهمتها المدمرة لو أن الأمة امتلكت الحد الأدنى من مقتضيات البقاء التي أكد عليها الإسلام ودعا إلى تحقيقها صباح مساء في القرآن الكريم والحديث الشريف وفي العبادات الشرعية، لقد كان على عالم الإسلام أن يصارع الغزاة جيلاً بعد جيل بدايةً بالصفات الأخلاقية والإنسانية التي يعرفها المسلم جيداً وفي لحظات الصراع خاصة وانتهاءً باستخدام السلاح الأكثر فاعلية لسحق الخصم. كان على عالم الإسلام أن يصارع الغزاة طيلة ما يقرب من ألف عام، وكانت الغزوات الخارجية تضربه

خلالها الواحدة تلو الأخرى دون أن تترك له فرصة لالتقاط الأنفاس بإعادة ترتيب أوضاعه وقدراته بما يمكنه من حماية الأرض والذات. ولقد استنزف هذا من الأمة المسلمة الشيء الكثير، وأعان عوامل التخلف والإعاقة على أن تزداد فاعلية وامتداداً على حساب عوامل التقدم والإبداع.

فمنذ أخريات القرن الخامس الهجري رمت أوربا بثقلها تحت مظلة الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الزمن، ثم ما لبثت الهجمات المغولية أن لحقت بها لكي ترمي بثقل آسيا الوسطى، بكل عنفه وقسوته وبربريته، ذد عالم الإسلام على مدى يقرب من القرن، وتتابعت من بعدهما الغزوات: حركة الاسترداد الاسباني –الديكونكرستا– استعادة الأرض ثانية التي نفذت، بعد النصر، واحدة من أبشع عمليات الإغتيال الديني والفكري والحضاري والجسدي في التاريخ. في سياق حركة الالتفات الإسباني – البرتغالي وحركة الاستعمار القديم وصولاً إلى الاستعمار الجديد (الإمبريالية) بجناحيه الرأسمالي والشيوعي وظهيره الصهيوني.

وعندما أعلن ما يسمى خطأً بعصر النهضة، بسبب من ارتباطه بالغزو الفرنسي لمصر في أخريات القرن الثامن عشر، كان الفارق في المدنية ولاسيما تكنولوجيا القوة، قد ازدادت هوته اتساعاً بيننا وبين الغرب، الأمر الذي يفسر إلى جانب عوامل متعددة أخرى فشل محاولات الإصلاح والحركات الجهادية التي صيغت الواحدة تلو الأخرى.

لم يكن يعوزها الأمة الفكر ولا الإيمان ولا الفدائية ولكن وببساطة تامة، كان يعوزها السلاح.

لقد قامت حركات المقاومة كالسنوسية والمهدية كرد فعل ضد الاستعمار، وكان عليها أن تنوء بعبء الفارق الكبير في التسليح. وفضلاً عن زخم الاندفاع الاستراتيجي للقوى الغالبة ورغبتها الأكيدة –المبطنة بالبعد الصليبي في احتواء العالم الإسلامي، وعدم إتاحة أية فرصة لاستعادته أيما قدر من الحيوية والنمو والاستقلال تحت مظلة الإسلام الذي تأكد للغرب أنه العقبة الأشد صلابة في مواجهة الخصم.

ثم إن أية حركة في التاريخ لا تشكل –ابتداء– وفق شروط موضوعية وإنما تجيء كرد فعل لحالة تاريخية، تعاني كثيراً من عناصر الخلل ونقاط التخلف التي تكون بمثابة المقتل الذي تغوص فيه سكين الغالب.

باختصار شديد إننا محملون بأثقال التاريخ وتراكم أخطاء الأجداد التي تمحورت حول خطيئة عدم الاستماع جيداً لنداءات القرآن والسنة وما ينطويان عليه من كشف وإضاءة لقوانين الحركة التاريخية. وعندما استيقظنا وبدأنا

فاعليتنا في مواجهة تفوق الخصم، كنا قد غيبنا الدين في معظم مساحات حياتنا فأصبح الفعل لا برنامج له وضاعت البؤرة التي تستقطب الأفعال، ففقدت قدرتها على التأثير. وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه: ﴿أولما أصابتكم مصيبة مثليهم قلتم أنى هذا؟ قل: هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾ (آل عمران :165).

في ضوء ما تقدم ومن أجل تجاوز المنهج التفكيكي في دراسة حضارة الإسلام يمكن اعتماد السياقات التالية موزعة على سنوات الدراسة الجامعية الأربع دون الدخول في تفاصيل ومفردات كل سياق، وهي مسائل تمت الإشارة إلى بعضها عبر هذه المحاضرة، ويمكن استقصاؤها فيما بعد عندما تدخل المحاولة دور التنفيذ.

السنة الأولى: أصول الحضارة الإسلامية: التأسيسات الإسلامية للفعل الحضاري في القرآن الكريم والسنة النبوية، والتطبيقات التاريخية لعصري الرسالة والراشدين.

السنة الثانية: نمو الحضارة الإسلامية: المعطيات والوظائف والخصائص.

السنة الثالثة: تدهور وانحلال الحضارة الإسلامية: العوامل الداخلية والخارجية.

السنة الرابعة: واقع الحضارة الإسلامية ومستقبلها: قبالة تحديات التكنولوجيا، والتفوق الغربي والنظريات الأكثر حداثة في تفسير التاريخ والنظام العالمي الجديد، ومقومات المشروع الحضاري البديل، واحتمالات المشاركة العالمية في المصير.